

العبرية النبوية في رعاية الفروق الفردية في حوار الأطفال (دراسة بلاغية)

أ.د. ناصر راضي الزهري إبراهيم (*)

المقدمة

الحمد لله وكفى وصلاة وسلاماً على عباده الذين اصطفى وبعد..
فالمتمأل في الأساليب النبوية في الحوار مع الصغار يلاحظ فروقا بلاغية دقيقة في حوار النبي - صلى الله عليه وسلم - من طفل لطفل ومن مرحلة عمرية لمرحلة أخرى، ومن موضوع إلى موضوع رعاية لحال الطفل المخاطب وطبيعته وحاجاته والموضوع الذي يحاوره فيه، فتسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن الفروق في الأساليب البلاغية النبوية في التعامل مع الأطفال حيث إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - استخدم أساليب خاصة في التعامل مع الأطفال تتناسب مع طبيعتهم وسنهم وعقولهم وتراعي الجوانب النفسية التي تنمي مهارات الطفل وعقله وتربي في نفسه الملكات اللازمة لتكوين الشخصية المثالية.

وقد نَوَّع في استخدام الأساليب البلاغية بما يتناسب مع كل مرحلة عمرية حتى تنسجم مع ميول الأطفال وأهوائهم وتحقق التواصل معهم بتبليغهم المعاني التربوية والمضامين الأخلاقية اللازمة لتلك المراحل.

وقد تميزت الأحاديث النبوية التي تضمنت خطاب الرسول - صلى الله عليه وسلم - للأطفال بخصائص أسلوبية وتراكيب بيانية تستحق الوقوف في محرابها طويلاً لاستجلاء محاسنها والكشف عن أسرارها، وبيان تأثيرها حيث إنه اختار فيها للفظ والمعنى بدقة تشهد بالتفرد والعبرية.

وهذه الأساليب جديرة بأن تنال العناية اللازمة وتقدم للأمة كنماذج راقية متميزة في التعامل مع الصغار بدلا من البحث شرقا وغربا عن نظريات في التربية قد تصيب، وقد تخطئ بينما الأساليب النبوية قد سبرت أغوار النفس البشرية في كل مراحلها من الطفولة إلى الكهولة بما يحقق لها سعادة الدارين.

(*) أستاذ البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية جامعة الأزهر، أستاذ البلاغة والنقد المشارك في كلية الآداب والعلوم- جامعة الأمير سطام بن عبد العزيز في وادي الدواسر - المملكة العربية السعودية.

كما تتميز البلاغة النبوية في هذا الإطار بالتكامل في بناء المنهج النفسي والبدني والعقلي طي الحديث النبوي في تربية النشء، وهو ما لا يوجد في كثير من مناهج غيره؛ فالرسول - صلى الله عليه وسلم - يتصرف بوحى الله الذي خلق البشر والذي يعلم ما يصلحهم في كل مراحل أعمارهم. ونستطيع الكشف عن كثير من أسرار التربية والجوانب النفسية التي يجب أن تُراعى في كل مرحلة عمرية والتي ترشدنا إلى الطريقة المثلى في بناء الشخصية المتكاملة بتحليل الأساليب البلاغية النبوية في خطاب الرسول - للأطفال.

مشكلة البحث:

العناية بالأطفال وتربيتهم تربية صحيحة من الناحية النفسية والجسدية والعقلية شغلت حيزا كبيرا من الدراسات العلمية على اختلاف توجهاتها التربوية والتعليمية وتلمس الناس حلولاً لها من الشرق والغرب جريا خلف النظريات العلمية التي تقدم لهم نموذجاً سليماً للتعامل مع الأطفال في مراحلهم العمرية المختلفة.

وإذا تتبعنا البيان النبوي في جملة الأحاديث التي توجهت بالخطاب إلى الأطفال سنجد منهجاً متكاملًا في التعامل معهم.

وهذا المنهج النبوي خاطب كل فئة عمرية بما يناسبها من الألفاظ والتراكيب والمعاني التي تحمل المضامين التربوية والتعليمية المناسبة للمرحلة العمرية التي توجه الخطاب إليها.

بدراسة هذه الأساليب الحوارية والكشف عن تركيباتها البلاغية وخصائصها الأسلوبية نستطيع أن نجد منهجاً مثالياً متكاملًا لطريقة التعامل مع الأطفال وتربيتهم وتعليمهم.

ونتعلم الطريقة العالية من البلاغة النبوية في اختيار الألفاظ والتراكيب والمعاني المناسبة وهذا ما تسعى الدراسة إلى كشفه.

وتسعى الدراسة إلى تقديم عمل جاد وهادف في أرقى درجات البلاغة البشرية متمثلة في الكشف عن العبقرية النبوية في جانب له خصوصية في حوار - صلى الله عليه وسلم مع الأطفال، فهي تتناول جانباً غفلت عنه أقلام

السابقين إلى البيان النبوي الذين تناولوا كثيرا من جوانبه البلاغية بالتحليل والبيان.

غير أن موضوع بلاغة الرسول - في خطاب الأطفال لم تفرد له دراسة خاصة من الجانب البلاغي والأسلوبي بطريقة تحليلية تكشف مزاياه وخصائصه وعلاقتها بطبيعة المرحلة العمرية وأثرها على وجدان الأطفال على حسب علم الباحث.

وإن كانت بعض الدراسات قد تناولت معاملة الرسول - صلى الله عليه وسلم للأطفال، وبعضها تناول خطاب الرسول للطفل لكن من وجهة تربوية كرسالة الماجستير للباحث محمد بن صالح العدوي في جامعة أم القرى بعنوان (خطاب النبي - صلى الله عليه وسلم - للطفل المسلم وتطبيقاته التربوية) وهي أقرب عنوان لهذه الدراسة غير أنها كما يتضح من عنوانها تتجه اتجاها تربويا يبتعد بها عن حقل الدراسة البلاغية وأهدافها.

وكما يبدو أن الباحث قد قيد العنوان بالطفل المسلم في حين أن النبي - صلى الله عليه وسلم - له مواقف حوارية مع أطفال غير المسلمين تشهد بعموم رسالته وشمول دعوته كموقفه مع ابن اليهودي الذي كان يحتضر فزاره النبي - صلى الله عليه وسلم - ودعاه إلى الإسلام وهو على فراش الموت فنظر الولد إلى أبيه فأشار إليه أبوه بأن يطيع أبا القاسم فأسلم فخرج النبي - صلى الله عليه وسلم - من عنده وهو يقول الحمد لله الذي أنقذه بي من النار أو كما قال - صلى الله عليه وسلم - (١)

وحوار النبي - صلى الله عليه وسلم - بخصوصياته للأطفال يحمل كثيرا من الخصائص البيانية والأسلوبية المؤثرة في بناء السلوك والشخصية المسلمة؛ فلزم الوقوف على هذه الخصائص والميزات حتى تكون قدوة للمربين والمصلحين.

(١) ينظر الحديث في الجامع الصحيح (محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ) ج: ٥ ص: ٣٤ الحديث (٣٧٥٦) حسب ترقيم فتح الباري - الطبعة: الأولى، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م - الناشر: دار الشعب - القاهرة.

أهداف البحث:

١- دراسة عبقرية الرسول - صلى الله عليه وسلم - وبلاغته في خطاب الأطفال وتوضيح كيفية اختياره للأشكال البلاغية المختلفة بما يتناسب مع فئتهم العمرية وطبيعتهم النفسية.

٢- تقديم هذه العبقرية البلاغية العالية للنبي - صلى الله عليه وسلم - في خطاب الأطفال التي تتضمن طريقتة في معاملتهم وتربيتهم وتعليمهم كنموذج يقتدى به المصلحون والدعاة والمعلمون في حوارهم للأطفال في أثناء تعليمهم وتربيتهم وتقويمهم في وقتنا الحاضر وبما يتناسب مع متغيرات العصر.

لا سيما وأن أساليب الرسول - صلى الله عليه وسلم - البلاغية أثبتت فاعليتها في النفوس ببناء الوازع الديني المانع من التردّي في الخطأ وغرس حسن الخلق بطريقة لا تحرم الأطفال من لعبهم ولهوهم ولا تخلو من تعليمهم وتربيتهم.

٣- الكشف عن مدى تأثير الأشكال البلاغية المختلفة في مختلف المراحل العمرية والذي يخرج بالبلاغة من حيز الدراسة النظرية الجافة إلى دراسة التأثير الحي الملموس والمباشر لأشكال البلاغة في عمق الحياة العملية.

٤- الإشارة إلى التناسق البديع والعجيب بين مختلف الأشكال البلاغية في أساليب النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما بينها خدمة للغرض وأسرار تراكيبيها ومظاهر تفوقها وصدارتها لكل أساليب البشر في إطار خطاب الأطفال.

أهمية الموضوع:

الأساليب النبوية قمة الأساليب البشرية في دقة النسق وعمق الدلالة وقوة التأثير، وبراعة التصرف في إمكانيات اللغة لتفجير طاقاتها وتصوير جمالها وإبراز مظاهر العبقرية طيها.

و غاية الدراسات البلاغية للأساليب إبراز مكونات النصوص والوقوف على كل ما يتعلق بها وما أحاط بها من مبدئها إلى منتهاها.

والبحث في سياق خطاب الرسول للأطفال يفيض بالأسرار و الفوائد في شتى المجالات اللغوية والبلاغية والتربوية، والتعليمية، و يكشف عن خصوصية فيها لا تتوفر لغيرها من أساليب البشر مهما بلغت مهارة أصحابها رقيًا في درج الفصاحة والبيان، وإدراكا لنظريات التربية والتعليم.

وتبرز أهمية هذا الموضوع من جهتين الأولى: من تفرد به موضوع جديد لم تسبق - في علم الباحث - دراسته من الواجهة التي يقصدها البحث.

الجهة الثانية: دراسة النهج البلاغي وأثره النفسي والتطرق للربط بين البلاغة والجوانب النفسية والتأثيرية في وجدان من خاطبهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - من هؤلاء الصغار.

مع محاولة الكشف عن الفوارق في دقائق الأسلوب من ناحية تكوين الألفاظ واختيارها، وبناء العبارات ونسقتها، وطبيعة الموضوعات، والمعاني التي تتضمنها.

وقد تضمنت كتب السنة النبوية عشرات الأحاديث التي تضمنت خطاب الرسول - صلى الله عليه وسلم - للصغار جمعت أفضل طرق الحوار والتواصل، فالأطفال يتعلمون بطريقة أفضل عندما يكون التواصل معهم قد صمّم حسب نموهم العمري واحتياجاتهم واهتماماتهم، وليس ثمة عالم بطبيعة النفوس كبارها وصغارها كالرسول- صلى الله عليه وسلم - فقد أطلعه الله - عز وجل - على كثير من الغيبات، وأمهه بخصوصيات عقلية وقدرات جسدية، ومعارف قلبية تمكنه من تبليغ رسالته والتمكن من قلوب وعقول من يخاطبهم؛ فأحاط ببواطنهم واستشعر ما يدور في خلجات نفوسهم كما ملك ناصية اللغة، وتكشفت له بأسرارها، وتصرف بجدارة في أدواتها؛ فوضع كل كلمة بل كل حرف في موضعه الذي يحقق به الأثر المطلوب في نفوس من يخاطبهم، وقوة تأثير أسلوبه وبلاغته مشهود لها من الصغار والكبار.

الطريقة الخاصة في بناء التراكيب واختيار الألفاظ في النسق النبوي في خطاب الأطفال حققت غايتها النفسية ورسخت مضامينها التربوية في وجدان من خاطبهم، ودراسة هذه الطرق العالية والأساليب المميزة تقدم نموذجًا للمربين والمعلمين يسيرون عليه لبلوغ مرادهم في التربية السليمة والتعليم المتميز.

ويبدأ التواصل الجيد والفعال بفهم أسس تطور الطفل وكيفية تنشئة هذا التطور والتعلم على نحوٍ أفضل. ولكل فئة عمرية نقاط قوة واهتمامات والتي تُترجم إلى الخيارات الأكثر ملائمة عند اختيار القصص والشخصيات والمحتوى وفي كل هذه الخيارات جاء النسق النبوي في قمة التوفيق والسداد .

منهجية البحث:

تعتمد الدراسة المنهج التحليلي البلاغي الذي يقوم على تحليل الحديث الوارد في إطار خطاب الأطفال ودراسة الألوان البلاغية التي أسهمت في خروجه في صورته التي ورد عليها.

ولا يقتصر على مجرد حصر وتعداد المعاني في النص، بل لا بد أن يبين أوضاعها المختلفة ويكشف عن علائقها المتناغمة، أو المتنافرة بالتركيز على مظهرين:

أحدهما: معرفة التوظيف البلاغي لهذه الأشكال، وقياس مداها، ووصفه.

الثاني: محاولة اكتشاف الأهمية النسبية لبعض الأشكال في نص معين على ما سواه ودورها في تكوين بنيته.^(١)

فأبدأ بذكر نص الحديث مضبوطاً بالشكل معزواً إلى مصدره من كتب السنة ثم أذكر مقدمة للمعنى العام للحديث والسياق الذي ورد فيه في إطار الطريقة العامة للرسول ﷺ في التعامل مع الأطفال، ثم أتناول الحديث من بدايته مبيناً أسلوبه في فتح الحوار ونوع اللون البلاغي المستخدم وأثره على السياق وخصائص السياق في حوار الصغار وطبيعة التراكم وأثرها على وجدان المتلقين مع الربط بين الأساليب البلاغية والجوانب النفسية.

خطة البحث:

المقدمة: وفيها: ملخص الموضوع - المشكلات والمخرجات - الأهداف والقيمة المضافة - أدبيات البحث - أهمية الموضوع - منهجية البحث.

المبحث الأول: اختيار الكلمات المناسبة لكل مستوى عمري عند الحوار

المبحث الثاني: بناء جمل الحوار بما يناسب عمر وفهم الطفل.

(١) ينظر: علم الأسلوب - مبادئه وإجراءاته / د. صلاح فضل / ص ٢١٧ / ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب / ١٩٨٥ م.

المبحث الثالث: اختيار المضامين التربوية والدينية والاجتماعية المناسبة لعمر الطفل.

المبحث الرابع: ترسيخ الأمور العقديّة في نفوسهم وتنشئتهم عليها من الصغر.

المبحث الخامس: بناء شخصية الطفل ودعم ثقته بنفسه خلال الحوار.

المبحث السادس: الدعاء لهم والعمل على ما يصلح آخرتهم ودنياهم.

الخاتمة.

الفهارس.

المبحث الأول

اختيار الكلمات المناسبة لكل مستوى عمري عند الحوار

يتكون الأسلوب من مجموعة من العناصر التي تصل خلالها رسالة المرسل لجموع المستقبلين أو أفرادهم، ومنها الكلمة التي تمثل الوحدة التي تتكون منها الجملة ويقوم على مجموعها النص.

ويراعي المتكلم الحريص على تبليغ ما يريد طبيعة من يحاورهم من حيث أعمارهم، وطبيعة فهمهم، ودرجة استيعابهم.

والرسول - صلى الله عليه وسلم - أكمل معلم وأعظم مبلغ، وهو بسبيل وحي الله يتصرف بحوله وقوته، ويمدد متصل من العلم والمعرفة والإحاطة ببواطن من يخاطبهم، وأفهامهم .

فكان - صلى الله عليه وسلم - يبني حوارَه بناءً في غاية الدقة والبلاغة ؛ فيختار الكلمات في الجملة بل يختار الأحرف داخل الكلمة بما يتناسب مع عمر الطفل ففي مجال التربية والتأديب يختار الكلمات التي تحقق الغاية من أقرب طريق لفهم الصغير

ومن اختياره للكلمات ما جاء عن أبي هريرة يَقُولُ أَخَذَ الْحَسَنُ بِنُ عَلِيٍّ تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ فَجَعَلَهَا فِي فِيهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم- (كَيْ كَيْ أَرْمِ بِهَا أَمَا عَلِمْتَ أَنَّا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ؟) (١)

فكلمة (كخ) هذه تقال لنهي الصغير وكفه عما يضره، وهي مكونة من مقطع واحد صغير يناسب الطفل في بداية عمره.

(١) صحيح مسلم (مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي - ج: ٣ - ص: ١١٧ - الحديث (٢٢٥٨) الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.

ولما كان المقام مقام زجر عن خطأ ونهي عنه اختار كلمة من حرفين لهما خصوصية في النطق حيث إن حرف الكاف والخاء لا يجتمعان في استعمال مستخدم قال صاحب التهذيب: (خك وكخ مهملان في اللغة) (١) وقال السيوطي في المزهر عن المواد المهملة من اللغة (ولا من مادة خ ك ك إلا قولهم كَخَّ يَكْخ كَخَّ وكخيخا إذا نام فغط) (٢) وتركيب هذين الحرفين مع بعضها يحقق التنفير في الصوت مما يُزَجِر عنه الطفل، واستخدامهما في هذه الكلمة كصوت للزجر تتناسب مع طبيعة الطفل في هذه المرحلة العمرية والتي يستجيب فيها للتأثير الصوتي أكثر من استجابته لتأثير المعنى الذي قد لا يدرکه.

قال النووي (قَالَ الْقَاضِي: (كَخَّ كَخَّ) بِفَتْحِ الْكَافِ وَكَسْرِهَا وَتَسْكِينِ الْخَاءِ، وَيَجُوزُ كَسْرُهَا مَعَ التَّنْوِينِ، وَهِيَ كَلِمَةٌ يُزَجَّرُ بِهَا الصَّبِيَّانُ عَنِ الْمُسْتَفْدَرَاتِ فَيُقَالُ لَهُ: (كَخَّ) أَيْ أُتْرِكُهُ، وَارْمِ بِهِ، قَالَ الدَّوْدِيُّ: هِيَ عَجْمِيَّةٌ مُعْرَبَةٌ بِمَعْنَى بِنْسٍ، وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ الصَّبِيَّانَ يُوقُونَ مَا يُوقَاهُ الْكِبَارُ، وَتَمْنَعُ مِنْ تَعَاطِيهِ، وَهَذَا وَاجِبٌ عَلَى الْوَلِيِّ.

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَمَا عَلِمْتُ أَنَا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ) (٣) هَذِهِ اللَّفْظَةُ تُقَالُ فِي الشَّيْءِ الْوَاضِحِ التَّحْرِيمِ وَنَحْوِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ الْمُخَاطَبُ عَلِيمًا بِهِ، وَتَقْدِيرُهُ: عَجَبٌ كَيْفَ خَفِيَ عَلَيْكَ هَذَا مَعَ ظُهُورِ تَحْرِيمِ الزَّكَاةِ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَعَلَى آلِهِ (٤)

قال ابن بطال: (وفيه: حمل الصبيان وتدريبهم على الشرائع، والتجنب بهم الحرام والمكروه... وفيه: مخاطبة الصبيان بما يخاطب به الكبار الفهماء إذا

(١) تهذيب اللغة: (أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري) ج: ٦ ص: ٢٨٥ - ت: محمد عوض مرعب دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت - الطبعة: الأولى ٢٠٠١م.

(٢) المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي: (جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي) ج: ٢ ص: ١٠٦ - تحقيق: فؤاد علي منصور - الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

(٣) صحيح مسلم (مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي - ج: ٢ ص: ٧٥٦ - الحديث (١٠٦٩).

(٤) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي) ج: ٤ - ص: ٣٣ - الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ - الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.

فهموا، وهذه المخاطبة وإن كانت للحسن ففيها تعريف للمسلمين أنه لا يأكل الصدقة^(١).

فإذا اختلف الموقف الذي يحاور فيه الطفل اختلف معه تركيب حروف اللفظ واختار حروفا وكلمات تناسب الموقف، ومن اختيار النبي - صلى الله عليه وسلم- للألفاظ المناسبة لعمر الصغير والموقف الحوارى لفظ: (سنه سنه) هذا اللفظ الحبشي الذي اختاره الرسول - صلى الله عليه وسلم - لخطاب طفلة تربت في الحبشة، فخطبها بما يُداعب بها من في عمرها بلغتها، فقد ورد عَنْ أُمِّ خَالِدِ بْنِ خَالِدِ بْنِ سَعِيدٍ قَالَتْ أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم- مَعَ أَبِي وَعَلِيٍّ قَمِيصٌ أَصْفَرٌ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم-: سِنَّهُ سِنَّهُ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ وَهِيَ بِالْحَبَشِيَّةِ حَسَنَةٌ قَالَتْ فَذَهَبْتُ أَلْعَبُ بِخَاتَمِ النَّبِيِّ فَرَجَرَنِي أَبِي قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: دَعَهَا ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: أَبْلِي وَأَخْلَقِي ثُمَّ أَبْلِي وَأَخْلَقِي قَالَ عَبْدُ اللَّهِ فَبَقِيَتْ حَتَّى ذَكَرَ يَعْني مِنْ بَقَائِهَا^(٢).

وبتحليل هذا اللفظ المناسب للغة الصغيرة ومناسب لسنها، تجده مناسباً أيضاً للموقف الذي يحاور الصغير فيه حال لعبه وعند الترحيب به وإظهار البشر والسرور لرؤيته فلفظ (سنه سنه) مكون من السين والنون والهاء وصفات هذه الحروف تخدم الغرض فالسين من صفاتها الهمس والرخاوة والصغير وهي تناسب استقبال الطفل ولعبه وتدعم رغبته في الإقبال على محاوره، والنون من صفاتها: الغنة؛ وهي صوت محبب في الأذن لاسيما للصغير والهاء صوت يريح النفس ويهدد الخاطر وكلها أدت فائدتها الصوتية والنفسية.

إذا أردت أن تدرك أثر التربية النبوية على وجدان الصغار والتي رسخت في عقولهم رسوخاً لا يذيله الزمن مهما طال، فتأمل صياغة الراوية للحديث وهي بظلة القصة التي وقعت لها في طفولتها وهي بالكاد تدرك ما يدور حولها من أحداث.

(١) شرح صحيح البخارى - لابن بطال (أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال البكري القرطبي) ج - ٥ - ص: ٢٣٢ - تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم - الطبعة: الثانية - دار النشر: مكتبة الرشد - السعودية / الرياض - ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

(٢) الجامع الصحيح (محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ) ج: ٨ ص: ٨ الحديث (٥٩٩٤) حسب ترقيم فتح الباري.

حيث روت القصة بكثير من ملابساتها فذكرت أنها كانت برفقة أبيها، وذكرت ما كانت ترتدي في هذا اللقاء الذي صار علامة فارقة في حياتها تفخر بها - وحق لها- ثم ذكرت طريقة تعامل النبي - صلي الله عليه وسلم - معها وما قاله لها فقد استقبلها وتبشّش لها وقال: (سنه سنه) وهي لفظة تقال للصغير ترحيبا به وتشجيعا له عند إقباله على الكبار وفيها إيناس وتلطف وتذكر مكررة ومعناها كما فسره الراوي: (حسن حسن).

ثم إنه تركها تلعب وتتحرك كما تشاء وتلعب بخاتم النبوة في جسد النبي الشريف وتركب على ظهره، وعندما دفعها أبوها عن النبي - صلي الله عليه وسلم- قال لها النبي - صلي الله عليه وسلم- (أبلي وأخلي، ثم أبلي وأخلي) وهي جملة دعائية بطول العمر وقد كررها - صلي الله عليه وسلم- إكراما لها وتلطفا بها.

قال ابن بطال وقوله: (أبلي وأخلي) هو كلام معروف عند العرب معناه الدعاء بطول البقاء، قال صاحب الأفعال: يقال: أبل وأخلقه: أي عش فخرق ثيابك وارقعها. وخلقت الثوب: أي أخرجت باليه ولفقته. (١)

وعبارة الراوي في الختام (فعمرت أم خالد بعد ذلك) تحكي أثر دعوة النبي - صلي الله عليه وسلم- على هذه الطفلة وتصور بطريقة عملية عناية النبي - صلي الله عليه وسلم- بالطفل ورعايته له واهتمامه به وإدراكه لقيّمته كإنسان مسلم وجزء من الأمة.

ومن اختياره للكلمة المناسبة لمداعبة الصغار وملاعبتهم اختياره لكلمة (ل kec) وتكرارها اهتماما وعناية بالصغير وحفاوة به وجاءت فيما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سوق من أسواق المدينة فأنصرف فأنصرفت فقال أين لك ثلاثا ادع الحسن بن علي فقام الحسن بن علي يمشي وفي عنقه السحاب فقال النبي صلى الله عليه وسلم بيده هكذا فقال الحسن بيده هكذا فالتزمه فقال اللهم إني أحبه فأحبه (فأحبه) وأحب من يحبه وقال أبو هريرة فما كان أحد أحب إلي من الحسن بن علي بعد ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال (٢).

(١) شرح صحيح البخاري - لابن بطال (أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال البكري القرطبي) ج - ٥ - ص: ٢٣٢.

(٢) الجامع الصحيح (محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ) ج: ٧ ص: ٢٠٤ الحديث (٥٨٨٤) حسب ترقيم فتح الباري.

وكلمة (لكع) معناها: صغير وهي مما ينادى به الطفل عناية به وحفاوة قال (الخطابي للكع على معنيين أحدهما الصغير والآخر اللينيم والمراد هنا الأول... وقال بلال بن جرير التميمي للكع في لغتنا الصغير وأصله في المهر ونحوه وعن الأصمعي للكع الذي لا يهتدى لمنطق ولا غيره) (١) وقوله (فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِيَدِهِ هَكَذَا فَقَالَ أَحْسَنُ بِيَدِهِ هَكَذَا) هذه الحركة التعبيرية لون من التواصل الوجداني والعقلي مع الصغير بما يشرح صدره ويحقق سعادته ويشاركه في لهوه.

وقوله (فَأَلْتَزَمَهُ) فيه تأليف لقلبه وإشعار له بالمودة والألفة التي يحتاجها الصغير لتلبية حاجاته الوجدانية والعاطفية التي تحقق التوازن النفسي. ودعاؤه بقوله (اللَّهُمَّ إِنِّي أَحِبُّهُ فَأَحِبَّهُ (فَأَحِبَّهُ) وَأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُ) فيه ما يبث السرور في قلب والديه وفيه من بركة دعوته - صلى الله عليه وسلم - ما فيه من الخير في الدنيا والآخرة وهو تعليم وتربية للوالدين لما يجب أن يكونوا عليه من بر ورحمة ورعاية للصغار في أمور دينهم ودنياهم.

فإذا كان الطفل أكبر قليلاً تغير تركيب الحوار من كلمة إلى جملة ذات جرس خاص يؤثر في سمع الصغير ووجدانه تأثيراً إيجابياً كاختياره في حديث أخي أنس - رضي الله عنه - بتكنية الصغير بأبي عمير المناسبة في موسيقاها لكلمة (النغير) الواردة في الحديث عن أنس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: كان رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَحْسَنُ النَّاسِ خُلُقاً وَكَانَ لِي أُخٌ، يُقَالُ لَهُ أَبُو عُمَيْرٍ - وَهُوَ فَطِيمٌ - كَانَ إِذَا جَاءَنَا قَالَ: (يَا أَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ النَّغِيرُ؟) (٢) وهي جملة كلماتها يسيرة وجرسها مؤثر ومعناها سهل الفهم محبب للصغير وأهله ويأتي الحديث في بلاغة هذا الحوار.

ومن اختياره للكلمة المناسبة السهلة ما ورد عن ابن عباس: (... فقال لي رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((يَا غُلَامُ سَمَّ اللَّهُ، وَكُلُّ بِيَمِينِكَ، وَكُلُّ مِمَّا يَلِيكَ))، فما زالت تلك طعمتي بعد" (٣) فمجموعة الكلمات من الأسماء: (غلام - الله - يمين) ومن الأفعال: (سم - كل - يلي) وكلها ثلاثية لا تجد فيها كلمة تحمل ثقلاً في النطق ولا صعوبة في الفهم، ولا يعاني الصغير في معرفة

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي) ج: ٤ ص: ٣٤١ - الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.

(٢) الجامع الصحيح (محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ) ج: ٨ ص: ٥٥ الحديث (٦٢٠٣) حسب ترقيم فتح الباري.

(٣) سنن ابن ماجة (ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني) (المتوفى: ٢٧٣هـ) ج: ٤ ص: ٤٠٧ - الحديث: (٣٢٦٧) كتب حواشيه: محمود خليل - الناشر: مكتبة أبي المعاطي.

مدلولها؛ فتحقق بذلك غرضها بتوصيل مضمون الحوار والمساعدة في حفظه ليسرها وخفتها ووضوح معناها ومباشرتها، ونجد أثرها ظاهراً في عبارة الغلام وهو طرف في الحوار حيث قال: (فما زالت تلك طعمتي بعد) وسيأتي مزيد بيان في بلاغة الحديث عند الكلام عن بناء الجمل في حوار الصغار - إن شاء الله - .
وفي مجال تقويم الخطأ وتصحيح السلوك لا تتخلف صفة اليسر والوضوح والمباشرة في توصيل المعنى عن ألفاظ الحوار فقد ورد عن رافع بن عمرو الغفاري، قال: كُنْتُ وَأَنَا غُلَامٌ أُرْمِي نَخْلَنَا، أَوْ قَالَ: نَخْلَ الْأَنْصَارِ، فَأَتَى بِي النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: يَا غُلَامُ، وَقَالَ ابْنُ كَاسِبٍ: يَا بَنِي، لِمَ تَرْمِي النَّخْلَ؟ قَالَ: قُلْتُ: أَكُلُّ، قَالَ: فَلَا تَرْمِ النَّخْلَ، وَكُلْ مِمَّا يَسْقُطُ فِي أَسَافِلِهَا، قَالَ: ثُمَّ مَسَحَ رَأْسِي، وَقَالَ: اللَّهُمَّ أَشْبِعْ بَطْنَهُ (١).

فمجموعة الأسماء الواردة في الحوار (غلام - بني - النخل - أسفل - اللهم - بطنه) لا تجد فيها كلمة فيها غموض أو ثقل أو غرابة فهي من بيئة الغلام وجارية في المعنى الذي بني الحوار لتوصيله رغم أن الغلام في موضع الخطأ والتعدي على حقوق الناس، ونلاحظ وجود ألفاظ تدل على التلطف (بني) والتي تربت على وجدانه المضطرب بعد أن أحضر إلى النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مأخوذاً بجرمه.

ومجموعة الأفعال: (ترمي - يسقط - أشبع) أفعال في صيغة المضارع المصور للحدث بطريق مباشر يصل بالمعنى لذهن الصغير في يسر، ويحفظ دون عناء.

وكلما كان الطفل أصغر ازداد الأسلوب يسراً ليقرب من فهمه في اختيار الحرف، والكلمة، والجملة بل ويختار الصيغة المناسبة تأمل قوله فيما روي عن أنس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: كان رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يلاعب زينب بنت أم سلمة ويقول: يا زوينب، يا زوينب) مراراً. (٢)

ونداء الصغير باسمه بقصد ملاحظته يشعره بالسرور والفرح ويشبع حاجته من اللهو ويحقق له الألفة مع الكبار كما يسعد، ويشرف والديه حيث ناداه رسول

(١) سنن ابن ماجة (ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني) (المتوفى: ٢٧٣هـ) ج: ٣ ص: ٣٩٧ الحديث رقم (٢٢٩٩) ت: محمود خليل الناشر: مكتبة أبي المعاطي.

(٢) الأحاديث المختارة للضياء المقدسي (الحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن أحمد الحنبلي المقدسي) ت: عبد الملك بن عبد الله بن دهبش - ج: ٢ ص: ٣٠٩ - الحديث رقم (١٧٣٣) الطبعة: الأولى - دار النشر: مكتبة النهضة الحديثة - مدينة النشر: مكة المكرمة - سنة النشر: ١٤١٠هـ.

الله - صلى الله عليه وسلم - أشرف الخلق، وتصغير الاسم (زوينب) فيه تلفظ وحنان ومداعبة للصغيرة، وتكرار اسم الصغيرة في هذه الصيغة تأكيد لقصد اللعب معها ومشاركتها فرحتها بما يشعرها بال العناية والاهتمام ممن حولها.

المبحث الثاني

بناء جمل الحوار بما يناسب عمر وفهم الطفل.

ومن بلاغة الأسلوب النبوي في بناء الجمل في حوار الأطفال ورعاية الفروق العمرية بينهم ما جاء في حوار ه مع فطيم فيما روي عن أنس - رضي الله عنه - قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أحسن الناس خلقاً وكان لي أخ، يُقال له أبو عمير - وهو فطيم - كان إذا، جاءنا قال: يا أبا عمير ما فعل النغير؟ (النغير: طائر كان يلعب به. (١) قال الحافظ ابن حجر- رحمه الله- في الفتح: إن هذا الحديث فيه جواز الممازحة وتكرير المزاح، وأنها إباحة سنة لا رخصة، وأن ممازحة الصبي الذي لم يميز جائز وتكرير زيارة الممزوح معه، وفيه ترك التكبر والترفع، ومنه التلطف بالصديق، صغيراً كان أو كبيراً، والسؤال عن حاله. (٢)

المتأمل في الحديث يجد رقة الأساليب النبوية ودقتها في رعاية الصغير وطبيعته وعمره.

وتتجلى العظمة النبوية في هذا التركيب البياني الدقيق حيث بدأه بأداة النداء (يا) وإنه لشرف أي شرف لأي إنسان أن يكون المنادي من قبل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومدعوًا للإقبال عليه.

ثم إنه ناداه بكنيته وفيها من التلطف والتكريم والتشريف ما فيها ! ثم هذا الاستفهام الذي يوحي بالرحمة والمودة والحنو في قوله (ما فعل النغير ؟) والنغير طائر كان يلعب الصغير به.

وهذا الاستفهام خرج عن معناه الحقيقي إلى الإيناس والملاطفة والمداعبة لهذا الصغير.

وهذا المسلك النبوي في النسق البياني يتضمن مضامين تربوية وإنسانية واجتماعية كثيرة تستحق أن تدرس بالتفصيل الدقيق لتخرج ما نحتاج إليه من

(١) الجامع الصحيح (محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ) ج: ٨ ص: ٥٥ الحديث (٦٢٠٣) حسب ترقيم فتح الباري.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي) ج: ٥ ص: ٥٨٤ - الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.

وسائل وأساليب تربوية تبني نفسية الطفل وعقله وبدنه مع غيرها من الأحاديث التي توجهت إلى الطفل.

ومنها في هذا الحديث: أنه كرم هذا الصغير الذي لا يدرك حجم هذا التكريم لكنه يشعر بالحنو والمودة وفي هذا إعلاء لقيمة الإنسانية، وإشعار لأهله بقيمة هذه النعمة التي تحتاج إلى رعاية وعناية، وفيها تفضل على أهله ضمناً. واستخدام الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أسلوب النداء بالكنية في نداء الطفل في هذه السن تدعم شعور الأسرة بقيمة هذا الصغير، وتشعر إخوانه وأهله بأن ابنهم كأنه أصبح في مصاف الشباب، وتكنية الولد تكسر الميوعة في النداء.

في بناء الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لخطابه لهذا الطفل بهذه الطريقة ومداعبته ما يبطل حجة كثير من الآباء الذين يتحججون بكثرة الأعباء التي تشغلهم عن مداعبة أبنائهم فلن يوجد من هو أشد عباءً وأكثر حرصاً على القيام به من رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فمن هموم الدعوة إلى هموم تسيير أمور الدولة إلى تدبير أمور الجهاد ثم عبادته لربه إلا أنه جعل له وقتاً لتربية أطفاله، وأطفال المسلمين.

استخدم الرسول عبارة صغيرة من كلمات قليلة معدودة لتناسب استيعاب الطفل ولا ترهقه في فهمها وما يترتب عليها من التجاوب معها. ولا يخفى النغم العبري المنبعث من الموسيقى الخفية الناتجة عن تقسيمها وتركيبها وما احتوت من السجع بين الجملتين، والجناس بين كلمتي (عمير)، و (نغير).

رعاية الجوانب النفسية للطفل عامل أساس في بناء شخصيته القوية ووسيلة ضرورية لتجنب الخلل النفسي الذي ينتج كثيراً من السلوكيات الخاطئة التي تترتب وتكبر في النفوس فتنتج كثيراً من الشخصيات المعقدة ذات الخلل النفسي الذي ينعكس على الفرد ومحيطه بداية بنفسه ومروراً بالأسرة وانتهاءً بالمجتمع.

فإذا كان عمر الصغير أكبر قليلاً اختلف بناء الجملة، واختلفت المضامين التي يحاور بها الصغير لتقويم سلوكه وتربيته على فضائل الأعمال فعن عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ، قَالَ: كُنْتُ عَلَامًا فِي حَجْرِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لِي: يَا عَلَامُ سَمَّ اللهُ، وَكُلَّ بِيَمِينِكَ، وَكُلَّ مِمَّا يَلِيكَ." (١)

(١) سنن ابن ماجة (ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني) (المتوفى: ٢٧٣هـ) ج: ٤ ص: ٤٠٧ - الحديث: (٣٢٦٧) كتب حواشيه: محمود خليل - الناشر: مكتبة أبي المعاطي.

فلاحظ بناء الجمل على اليسر والوضوح متضمنة توجيهات وتعاليم تتطلبها المواقف والأفعال الصادرة من الصغير ومناسبة لعمره فهذا غلام وهو في منطقة زمنية تسمح بأن يتلقى بعض التوجيهات في سلوكه ودينه وجمل الحوار (سَمَّ اللَّهَ، وَكُلَّ بِبَيْمِينِكَ، وَكُلَّ مِمَّا يَلِيكَ) تركبت من عناصر لغوية تنسجم مع فهمه حيث تكونت من فعل الأمر الذي يعمد إلى تعليم الصغير ما يلزمه في هذه المرحلة العمرية (سم الله) وهي جملة بسيطة من فعل وفاعل تحقق المقصود وتربي الصغير على ذكر اسم الله عند كل عمل الأمر الذي يقوي الجانب العقدي لدى الصغير وكذا جملة (كل مما يليك) والتي تعلمه متابعة النبي - صلى الله عليه وسلم - في سننه ثم تأتي الجملة الثالثة التي تعلمه رعاية حقوق العباد بعدم الجور على مخالطيه (وكل مما يليك) حيث كانت يده تطيش في الصفحة، فمن تربي على رعاية من حوله في القليل رعاهم في الكثير، ومن جار في القليل يوشك أن يجور في الكثير، فهو سلوك يصدر فإن ترك صار عادة فالجملة الأولى في حق الله (سم الله) تربي الإخلاص والجملة الثانية (كل بيمينك) في حق النبي - صلى الله عليه وسلم - تحقق المتابعة بالانتماء، والجملة الثالثة في حق العباد (كل مما يليك) تربي على رعاية الحقوق والجمل الثلاث من اليسر والقرب على ما ترى.

فأنت ترى الجملة في غاية اليسر، وهي في الحقيقة في قمة العمق، وهذا أحد مظاهر تلك العبقورية النبوية في سهلها الممتنع.

فإذا كبر الصغير قليلا أصبح قادراً على تلقي مضامين عقديّة وتربوية أكثر عمقاً في جمل أكثر دقة في تركيبها تأمل حواراه فيما ورد عن ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ لِي وَأَنَا رَدِيفٌ خَلْفَهُ يَا غُلَامُ إِنِّي مُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ فَاحْفَظْهُنَّ احْفَظِ اللَّهَ تَعَالَى يَحْفَظْكَ اللَّهُ تَعَالَى تَجِدُهُ تُجَاهَكَ فَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ تَعَالَى وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ تَعَالَى وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ كَتَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْكَ جَعَتِ الْأَقْلَامُ وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ^(١) ويأتي تحليل الحوار بلاغياً.

(١) الدعاء للطبراني (سليمان بن أحمد الطبراني أبو القاسم [٢٦٠ - ٣٦٠] المحقق: مصطفى عبد القادر عطا - الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ.

المبحث الثالث

نرسبمخ الأمور العقديية في نفوس الأطفال وتنشئتهم عليها من الصغر
عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال كُنتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - فَقَالَ لِي وَأَنَا رَدِيفُ خَلْفِهِ يَا غُلَامُ إِنِّي مُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ فَاحْفَظْهُنَّ احْفَظِ اللَّهَ تَعَالَى يَحْفَظُكَ احْفَظِ اللَّهَ تَعَالَى تَجِدُهُ تُجَاهَكَ فَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ تَعَالَى وَإِذَا اسْتَعْنَتْ فَاسْتَعْنِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ كَتَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْكَ جَفَّتِ الْأَقْلَامُ وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ^(١).

المنهج النبوي في التربية والتعليم منهج متكامل يراعي الجانب النفسي والوجداني والعقلي ويمهد تربية القلب حسب طبيعتها لتقبل ما يلقي إليها. تأمل كيف تصرف المعلم الأعظم مع المتعلم؟!، فقد قرّبه إليه بأن أردفه خلفه على الدابة، وفي هذا تقريب مكاني ووجداني ممد لتربية القلب لما سيغرس فيها حيث سيساعد القرب المكاني من تحقق وصول المعلومة، بينما يساعد القرب الوجداني في تلقف كل ما يلقي إليه من ناحية، ومن أخرى يثبته في نفسه ويشعره بالتميز والحظوة عند النبي الكريم - صلى الله عليه وسلم - وهو ما يبدو من حفظه لما قاله له وعنايته به وضبطه والحرص على نشره وإذاعته.

ومع قرّبه من النبي - صلى الله عليه وسلم - فقد ناداه بأداة نداء البعيد وهو إما لكونه غير مواجه له لأنه خلفه - مع حرصه على إسماعه - وإما لتنزيله منزلة المنكر لغفلة كثير من الناس عن هذه الأمور مع عظمتها. ثم إن نداءه بلفظ (غلام) فيه تكريم آخر لمحبة العرب لهذا الوصف المفضل عندهم من بين الجنسين.

والجملة الخبرية (إني معلمك كلمات) فيها من البلاغة ما لا يحد فقد أكد الجملة بأكثر من مؤكد في حين خلى المقام من الشك والإنكار وهو ما يصرف الغرض إلى تعظيم الأمر في نفس الغلام، وإشعاره بقوة عزمه على الأمر الذي يؤكد عظّمته في نفس الغلام.

والتعبير بضمير التكلم العائد إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - يعطي الجملة بعداً آخر من القيم الدلالية الوجدانية في العبارة؛ فإن قيمة الكلام تشرف بشرف المتكلم، وتعظم بعظّمته، فإن كلام الملك في أسمع المخاطبين بخلاف

(١) الدعاء للطبراني (سليمان بن أحمد الطبراني أبو القاسم [٢٦٠ - ٣٦٠] المحقق: مصطفى عبد القادر عطا - الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ.

كلام غيره، ومنزلة النبي - صلى الله عليه وسلم - في نفوس صحابته كبارًا وصغارًا لا تساويها منزلة أي ملك من ملوك الدنيا، ولا تدانيها.

والتعبير باسم الفاعل (معلمك) دون الفعل (أعلمك) يعطي بعدًا إضافيًا في بناء الجملة وتوكيدها.

ثم إنه نكّر لفظ (كلمات) وجمعها جمع قلة ليفيد تعظيمها وقوّلتها فجمعت هذه الكلمات بين السهولة واليسر وبين القيمة العالية.

وجملة: (إني معلمك كلمات) فيها إبهام تبعه توضيح في جملة (احفظ الله يحفظ..). وما تلاها، وهو لون من ألوان التشويق التي تجعل المخاطب كلف بمتابعة المتكلم حتى يختم حديثه.

ومن بديع ما في الحديث - أيضًا - في قوله: (احفظ الله يحفظك) الجنس الناقص، وهو في المعنى والتركيب والشكل يؤكد أن الجزاء من جنس العمل؛ فحفظ حدود الله يحفظ العبد في دينه وماله وولده يحفظه في دنياه وأخراه.

وما أجمل بلاغة الحذف للجار والمجرور والتقدير: يحفظك في نفسك ودينك ودينك والذي يفيد العموم. وفيها الحذف البليغ الواقع في قوله: (إذا سألت، وإذا استعنت) حيث حذف منها المفاعيل لتعم كل مسؤل ومستعان عليه كما أنها تيسر على الصغير حفظها.

وإذا نظرنا إلى العلاقات بين المفردات والجمل نجد الفصل والوصل في الرتبة العالية من البلاغة حيث وقع الفصل بين الجملتين الأولى والثانية، لأن الأخرى توكيد للأولى فبينها كمال الاتصال، والعطف يقتضي المغايرة، ووقع الوصل في الجملتين مع أن بينهما كمال الاتصال لاختلافهما في اللفظ.

والتنكير في لفظ " شيء " للتقليل، وتكراره أربع مرات لترسيخ المعنى المقصود وهو عجز البشر عن إحداث تغيير في تقدير الله تعالى. ثم إن بلاغة التضمين في قوله " واعلم بأن " حيث أشربت (اعلم) معنى الجزم فقرنت بالباء ليعتد على الاعتقاد الراسخ. ولفظ (كلمات): مجاز مرسل علاقته الجزئية، وقوله: (احفظ الله) مجاز بالحذف والمراد احفظ شرع الله. وكذا في قوله: (إذا سألت، وإذا استعنت) المراد إذا أردت السؤال أو الاستعانة، إذ الإرادة هي السبب فيها، فأطلق المسبب على سبيل المجاز المرسل وعلاقته السببية. والتصوير بالكناية البديعة في قوله " رفعت الأقلام وجفت الصحف " هي كناية عن صفة هي سبق علم الله وتقديره لكل ما يكون.

وإذا أردنا تلخيص الأسلوب البلاغي النبوي في خطاب الأطفال في هذا الحديث نجده بدأ بتقريب المتعلم ليأنس ويشعر بالألفة والمودة وذلك عن طريق

اردافه خلفه على الدابة وهي حركة وإن بدت عفوية متكررة في البيئة العربية لكنها في مقام التعليم والتربية لها دور عظيم في تمهيد قلب الطفل وعقله لما يلقي إليه فالعلاقة الطيبة القائمة على المودة والرحمة بين المعلم والمتعلم من أهم أسباب التواصل والتقارب الممهد للتأثير الإيجابي الفعال.

أيضا نجد النداء بـ (يا غلام) وفيه ما سبقت الإشارة إليه من التنبيه والتكريم. ثم اعتماد الجمل القصيرة المفصلة ذات الكلمات القليلة الواضحة السهلة التي لا تجهد الطفل ولا يعجز عن فهمها.

كما اعتمد أسلوب الحذف البليغ وإيجاز القصر الوافي بالمعنى فجاءت الجمل في كلمات محدودة سهلة الحفظ والاستيعاب.

اعتماد أسلوب الشرط الذي يربط العمل بالجزاء فيجعله كالمكافأة (وإذا سألت فلتسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله...) تشجيعاً له على إتيان الأمور به، وتجنب المنهي عنه.

وثمة ملمح بلاغي في استخدام (إذا) في الشرط وهو إفادة التحقيق ؛ لأن سؤال المؤمن لربه، واستعانته به محققة فهي جزء من عقيدته حيث يتوجه لربه ولا يتوجه لمن سواه في الدعاء وطلب العون.

التوجيه والتعليم عن طريق أسلوب الأمر بعد تهيئة الطفل لتقبله (احفظ - اسأل - استعن - اعلم).

استخدام أسلوب المقابلة في توضيح المعاني وتأكيدها وهو أسلوب مميز في تبليغ المعاني لاسيما للأطفال فالمقابلة بين قوله (لو اجتمعت الأمة على أن ينفعوك فلن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك) وقوله: (ولو اجتمعت على أن يضروك فلن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك...).

استخدام (لو) في (لو اجتمعت...) حرف امتناع لامتناع للدلالة على أن اجتماع الأمة - حتى لو حصل - فمن من المستحيل أن يغير من تقدير الله السابق للعبد فلا يقع في كونه إلا ما قدره وسعي البشر فرادى أو مجتمعين لا يغير من قدر الله كثيراً ولا قليلاً.

والتعبير بالمصدر المؤول من (أن) والفعل المضارع (ينفعوك.. يضروك) دون المصدر الصريح (نفعك، وضرك) لأن المضارع يفيد التجدد والاستمرار، وتكثير (شيء) في الموضوعين للتقليل.

أما تنكير (شيء) في قول الرسول - صلى الله عليه وسلم -: (بشيء قد كتبه الله لك) فيدل على التعظيم.

وفي قوله (لم ينفعوك إلا بشيء...) أسلوب قصر للتخصيص لحصر النفع العائد

من الاجتماع على ما كتبه الله ونفيه عن ما سواه.
وكذلك في قوله: (لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك) أسلوب قصر
للتخصيص لحصر الضرر العائد من الاجتماع على ما كتبه الله ونفيه عن ما سواه.
التصوير بالكناية (رفعت الأقلام، وجفت الصحف) ومزية الكناية في الخطاب
عامة وفي إطار خطاب الأطفال خاصة أنها تنقل المعنى في صورة حسية
مصحوبة بالدليل، وهو ما يسهم في تقرير المعنى وتوضيحه وتثبته، وبناء
الفاعل للمجهول في: (رفعت الأقلام وجفت الصحف) للتعظيم.
وإذا نظرنا إلى المضامين التربوية للحديث نجد أنه يعمل في بناء العقيدة
وهي أهم وأول ما يجب أن يتوجه إليه المربون في تعليمهم للصغار، فبناء
العقيدة في النفوس يسهم في بناء جميع المضامين التربوية الأخرى.
الحديث يربي الطفل على مراقبة الله وحفظ حدوده، والتوكل عليه وحده
والاستعانة به، وترك الاعتماد على غيره في تحقيق النفع أو دفع الضرر، وعدم
القلق من المستقبل لأنه بيد الله وحده، فما دام العبد دائراً في مرضاته فلا خوف،
وهو ما يحميه من كثير من الأمراض النفسية، كما يبني شخصيته بناءً سليماً
متوازناً من المنظور العقلي والنفسي.
وهو استكمال لما بناه في نفسه في الحديث الذي ورد عن عُمَرَ بْنِ أَبِي
سَلَمَةَ، قَالَ: كُنْتُ غُلَامًا فِي حِجْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ
فِي الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لِي: يَا غُلَامُ سَمَّ اللَّهُ، وَكُلُّ بِيَمِينِكَ، وَكُلُّ مِمَّا يَلِيكَ." (١)

(١) سنن ابن ماجة (ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني) (المتوفى: ٢٧٣هـ) ج: ٤
ص: ٤٠٧ - الحديث: (٣٢٦٧) كتب حواشيه: محمود خليل - الناشر: مكتبة أبي المعاطي.

المبأ الرباع

تقوفا أأءاء الأطفال بالأسالب البلاغفة النبف ففناسب مع أعمارهم
عن عمر بن أبف سلمة؁ قال: كُنْتُ عُلَامًا فف فِجْرِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَكَانَتْ فِئف فطفش فف الصَّحْفَةِ؁ فَقَالَ لئف: يَا عُلَامُ سَمِّ اللهُ؁ وَكُلْ بئمففك؁ وَكُلْ مِمَّا ففلك. (١)

قوله (كنت علامًا فف فجر رسول الله - صلى الله عليه وسلم -...) فكونه فف فجر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ففشر إلى توفر الجانب الوجداني الذي فمهد نفس الطفل لتقبل النصأ والإرشاد والتوفففة لوجود الألفة بفن المعلم والمتعلم.

والتعبفر بالجار والمجرور (فف فجر) وإضافة الفجر للرسول فففد ففصوففة المكانة المنبئة بشرفه وقربه وهو ما ففعله أكثر استجابة للتوفففة.

وقوله: (وكانت فف فطفش فف الصأفة...) فحدد موضع الأأ والتعبفر بلفظ (تطفش) فففد ففقدان الوجهة؁ والتأبظ فف جوانب الإناء؁ وهو ما فسفء إلى ففره من الأكلفن معه؁ ونسبة الطفش للفد من المأاز بنسبة الفعل لفر فاعله؁ قال الطفبف: والأصل أطفش بفف فأسند الطفش إلى ففه مبالغة فف أنه لم فراع أء الأكل.

وقد فمفر الأسلوب النبوف فف إطار تقوفا أأءاء الأطفال بعة مفزات منها:

- تصفره بالنداء ب(فا) التي فنادى بها البعفد مع قربه لتنزفله منزلة البعفد بسبب العفلة. أو لعظم مكانته عنده أو لإشعاره بتلك المنزلة عند النبف - صلى الله عليه وسلم - فف فزاد عنافته بما فسمع؁ وفرغب فف أن فكون أهلاً لتلك المنزلة. والنداء ب(فا علام) ففه من التكرم ما فلفت إلى العنافة بما فووف من أجله؁ وحسبه أن فكون المنافى من قبل الرسول - صلى الله عليه وسلم -.

- الإفأاز فف فف صدرت التوفففات للطفل فف فمل قلفة موفزة فف كلماتها؁ وكلماتها موفزة فف حرفها.

(١) سنن ابن مأجة (ابن مأجة أبو عبء الله مأمء بن فزفء القزوفنف) (المفوفف: ٢٧٣هـ) ج: ٤ ص: ٤٠٧ - الففءف: (٣٢٦٧) كئب فواشفه: مأموء فلفل - الناشر: مكئبة أبف المعاطف.

- وقد جاءت الجمل متوازنة متقاربة في عدد الكلمات والحروف، وهو ما ييسر حفظها كما أن معانيها واضحة ليس فيها غموض ولا التباس.

- القصد: حيث توجهت الجمل إلى التوجيه المباشر الكاشف عن موضع الخطأ بالأمر بما يقومه وما يتعلق به دون أن تتضمن زيادات قد تشغل عن المقصود.

- الاستيفاء: حيث استوفت جمل الحديث المعاني المقصودة والتي توجهت إلى عين الخطأ فقومتها، واستوفت ما يلزمه من آداب الطعام التي قد يغفل الصغير عن بعضها.

عن رَافِعِ بْنِ عَمْرٍو الغِفَارِيِّ، قَالَ: كُنْتُ وَأَنَا غُلَامٌ أَرْمِي نَخْلَنَا، أَوْ قَالَ: نَخْلَ الْأَنْصَارِ، فَأَتَيْتَنِي بِي النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: يَا غُلَامُ، وَقَالَ ابْنُ كَاسِبٍ: يَا بُنَيَّ، لِمَ تَرْمِي النَّخْلَ؟ قَالَ: قُلْتُ: أَكُلُّ، قَالَ: فَلَا تَرْمِ النَّخْلَ، وَكُلْ مِمَّا يَسْقُطُ فِي آسَافِهَا، قَالَ: ثُمَّ مَسَحَ رَأْسِي، وَقَالَ: اللَّهُمَّ اشْبِعْ بَطْنَهُ (١).

بمقارنة هذا الحديث مع سابقه نجد اختلافاً بينهما نظراً لاختلاف المواقف والأحداث ففي الحديث السابق كان الخطأ في طريقة الأكل، وفي هذا الحديث الخطأ في المأكل وطريقة الحصول عليه، وقد تعدى الغلام على حقوق غيره في الحصول عليه.

كما أن أهل الحق رفعوه للنبي - صلى الله عليه وسلم - وقد لاقى الغلام على إثر هذا الخطأ المتعلق بحق الناس، وقد جاء أسلوب النبي - صلى الله عليه وسلم - في خطاب هذا الطفل مباشراً مصدراً بندا للتنبيه، تبعه استفهام حقيقي شابه لوم على الفعل حيث ذكر الفعل الذي المستفهم عنه (لِمَ ترمي النخل؟) وقد أجابه الطفل إجابة تدل على بلاغة فطرية اعتمدت الإيجاز الوافي حيث أجابه بلفظ (أكل) ثم أتبعه الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأسلوب نهى يصوب الخطأ ويرده إلى الحق، ولعلمه بحاجة الصغير ولعدم حرمان الطفل مما يشتهييه جاء أمره بإباحة الأكل له مما يسقط من النخل دون رميه.

(١) سنن ابن ماجة (ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني) (المتوفى: ٢٧٣هـ) ج: ٣ ص: ٣٩٧ الحديث رقم (٢٢٩٩) ت: محمود خليل الناشر: مكتبة أبي المعاطي.

إلى هنا ردَّ النبي - صلى الله عليه وسلم - الحق لأصحابه ومنع الطفل من العبث بصالح الناس وما يضرهم، ولم يغفل رغبة الطفل في تناول الطعام. لم ينس النبي - صلى الله عليه وسلم - استدعاء الطفل للمثول بين يدي النبي - صلى الله عليه وسلم - على إثر هذه الشكوى وما فيه من رهبة وخوف تتأثر بهما نفسه؛ فمسح على رأسه، وهذه الحركة مع بساطتها في غاية الأهمية في عالم الطفولة، فهي تعيد إلى نفس الطفل أنفاسه الذاهبة، وتهدد خاطره وتذهب روعته، وهي في مجال البيان تثبت المعاني التي وجهها له المربي الأعظم لارتباطها بحدث الفعلي.

لم ينته الفضل النبوي بهذا الفعل وإنما ختم الحوار بدعوة في صميم الحل للمشكلة (اللهم أشبع بطنه) وهذا الدعاء فيه تطيب لقلب الطفل، وأهله، وتخفيف من ثقل الموقف الذي وقع فيه صغيرهم.

ومنه ما جاء عن أبي هريرة، قال: أَخَذَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ، فَجَعَلَهَا فِي فِيهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: " كَخِ كَخِ أَرْمِ بِهَا أَمَا عَلِمْتَ أَنَّا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ ". (١)

الحديث هنا يتناول حوارًا مع طفل يتربى في بيت النبوة وهو صغير لا يكاد يميز الأحكام الشرعية، وتقويم خطر الصغير الذي لا يميز يختلف في الأسلوب والأدوات عن الأسلوب الذي يقوم به خطأ الطفل المميز.

وقوله (أخذ الحسن بن علي رضي الله عنهما تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ) نسبة الأخذ إلى الحسن - عليه السلام - تدل على أنه كان صغيراً، يتصرف على قدر تصرف من في سنه، ويدل على ذلك باقي الحديث، وتنكير تمرة، وإفرادها للتقليل للإشارة إلى أنها واحدة، ومن بيانية، وإضافة التمر للصدقة إضافة تخصيص تشير إلى حرمة على النبي ﷺ، وآله وهو سبب ما جاء بعده في الحديث.

وبتأمل ما جاء من بلاغة الحوار النبوي للطفل في هذا الحديث نجد أنه:

- استخدم اللفظ المناسب لعمر الطفل والذي يخاطب به مثله (كَخِ كَخِ)

وهي كلمة زجر تقال للصبي لرده عن المكروه.

(١) صحيح مسلم (مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي - ج: ٣ - ص: ١١٧ - الحديث (٢٢٥٨).

- كرر الكلمة ذاتها(كَخْ كَخْ) تأكيدًا لوصولها سمع الطفل وفهمه، وفيها تنبيه على الخطأ وزجر عنه يدفعه لتركه.
- أسلوب الأمر الذي تلى الزجر في قوله (إرم بها) وهو أمر بمعنى الزجر، والكف، والعبارة كلها كناية عن حرمة الصدقة عليهم، والباء في (بها) للتوكيد.
- استفهام التنبيه والإخبار والتعليل لسبب ترك الأكل من الصدقة في قوله (أَمَا عَلِمْتَ أَنَا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ؟!) وهو استفهام إخبار، وتنبيه، وزجر يكشف عن سر الزجر، وسبب الأمر برمي التمرة، وفي الرواية الثانية (أَنَا لَا نَحِلُّ لَنَا الصَّدَقَةَ) وعبر بالنفي العام ونسب عدم الحل للصدقة مبالغة في الحرمة كما تشير إلى أن الأمر من الله، وليس لهم فيه اختيار، وتقديم الجار، والمجرور (لنا) يفيد الاختصاص بمعنى أن حرمة أكل الصدقة خاصة بالرسول ﷺ، وآل بيته ﷺ دون غيرهم.

المبحث الخامس

بناء شخصية الطفل ودعم ثقته بنفسه خلال الحوار

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَدَحٍ فَشَرِبَ مِنْهُ وَعَنْ يَمِينِهِ غُلامٌ أَصْغَرَ الْقَوْمِ وَالْأَشْيَاحُ عَنْ يَسَارِهِ فَقَالَ يَا غُلامُ أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أُعْطِيَهُ الْأَشْيَاحُ قَالَ مَا كُنْتُ لِأُوْتِرَ بِفَضْلِي مِنْكَ أَحَدًا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَعْطَاهُ (إياه) (١).

في الحديث موقف طريف يصور تقدير الرسول - صلى الله عليه وسلم - للأطفال وتقديرهم وإشعارهم بقيمتهم، والاعتداد برأيهم واحترام حقوقهم وإنفاذ رغباتهم.

وأحداث الحديث يرويها سهل بن سعد - رضي الله عنه - والتي تكشف عن وجود غلام بين مجموعة من الشيوخ والغلام يجلس قدرًا عن يمينه بينما يجلس الشيوخ عن يساره.

وسنة الرسول - صلى الله عليه وسلم - في التيمن تقضي بأن يبدأ بالغلام الذي عن يمينه قبل الشيوخ عن يساره.

وقد جاء تصرف النبي - صلى الله عليه وسلم - تعليمًا وتأديبًا واحترامًا وتقديرًا وحكمة حيث توجه إلى صاحب الحق يستأذنه في أن يسقي الشيوخ قبله فجاءت عبارته: (يا غلام، أتأذن لي أن أعطيه الأشياخ؟) فتصدرها النداء تنبيهًا يحمل تكريمًا فإن نداء الرسول - صلى الله عليه وسلم - شرف لكل مُنادى صغر أم كبر؛ لأنه طلب إقباله إليه ثم جاء الاستفهام بغرض طلب الإذن من هذا الصغير ثم إنه علق الإذن بالجار والمجرور (لي) وفيه حث على الاستجابة لكون الإذن مختص برسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

والتعبير بلفظ (الأشياخ) يدل بمعناه على الفارق الزمني في العمر بينهم وبين الغلام والذي سوَّغ تقديمهم عليه الأشياخ مفردها شيخ وهو من بلغ الأربعين.

(١) الجامع الصحيح (محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ) ج: ٣ ص: ١٤٤ الحديث (٢٣٥١) حسب ترقيم فتح الباري - .

ويدل بوزنه على قلة عددهم لأنه على وزن (أفعال) وهو من جموع القلة (١) وهذه العبارة النبوية تحمل إجلال الكبير واحترام الصغير وتشعر الطفل بقيمته، وأن له رأياً معتبراً عند رأس الأمة وعظيمها.

ولنتأمل رد الغلام الذي جاء متساوفاً مع عبارة النبي - صلى الله عليه وسلم - في حسن الرد، وإدراك قيمة الشرب من فضل النبي - صلى الله عليه وسلم - واستشعار هذه المكرمة دليل على حسن عقل الغلام وفطنته.

وقد بنى عبارته بناءً يدل على عمق فهمه؛ فقد بدأها بأسلوب النفي الذي يحفظ حقه ويقرر إدراكه لقيمة الشرب من سور رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقوله: (ما كنت لأوثر بفضلي منك أحداً يا رسول الله) حيث استخدم فعل الكينونة في الماضي للدلالة على تحقق النفي، والتعبير بلفظ الإيثار دلالة على إدراكه أن هذا من حقه والتعبير بالجار والمجرور (منك) يوحي بسبب تمسكه بتقديمه على الأشياخ في الشرب لشرف كونه من الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقول الراوي: (فأعطاه إياه) يقرر استجابة الرسول - صلى الله عليه وسلم - للغلام وتحقيق رغبته وتثميناً لموقفه وتقديرًا له.

ومعاملة الأطفال بهذا القدر من التقدير والاحترام وبناء الثقة والاعتداد بالرأي كلها من عوامل بناء الشخصية السوية التي تبني، ولا تهدم، وتتقدم ولا تتقهقر.

عَنْ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ أَبَوَيْهِ اخْتَصَمَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَحَدُهُمَا كَافِرٌ، وَالْآخَرُ مُسْلِمٌ، فَخَيَّرَهُ فَتَوَجَّهَ إِلَى الْكَافِرِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اهْدِهِ، فَتَوَجَّهَ إِلَى الْمُسْلِمِ، فَقَضَى لَهُ بِهِ. (٢).

هذا الحديث يكشف بأحداثه التي عبرت عنها جملته مدى رحمة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وحرصه على هداية كل نفس بشرية صغرت أم كبرت، كما يكشف عن قيمة هذه النفوس الصغيرة عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

(١) - ينظر الباب في علل البناء والإعراب - أبو البقاء محب الدين عبدالله بن الحسين بن عبدالله / ص: ٣٢١ -- تحقيق: غازي مختار طليعات - الناشر: دار الفكر - دمشق / الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.

(٢) سنن ابن ماجة (ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني) (المتوفى: ٢٧٣هـ) ج: ٣ ص: ٤٣٩ - الحديث: (٢٣٥٢) كتب حواشيه: محمود خليل - الناشر: مكتبة أبي المعاطي.

وسلم - وحرصه على تنشئتها على الإسلام موحدة لله، والابتعاد بها عما يوجب دخولها النار.

والأحداث تدور في الحديث حول أبوين أحدهما على الكفر والآخر على الإسلام وهما يتنازعان حضانة الطفل، والرسول - صلى الله عليه وسلم - حكم عدل لا ينحاز إلا لشرع الله الذي يوجب العدالة بين الأبوين وإن كان أحدهما كافرًا.

لكن تتحرك في قلب الرسول - صلى الله عليه وسلم - رغبة في أن يكون الطفل في حضانة المسلم حتى ينشأ على الإسلام موحدًا.

والعدالة المطلقة لدين الله اقتضت أن يخير الطفل بين أبويه ليختار من يريد أن يعيش معه، وقد تم تخييره لكن الطفل توجه للكافر.

وفي هذه اللحظة تحرك قلب النبي - صلى الله عليه وسلم - بحرصه على هداية كل نفس فتوجه إلى ربه بقلبه يدعو أن يهدي هذا الطفل إلى ما فيه نجاته في الدنيا والآخر.

وعبارة النبي - صلى الله عليه وسلم - تكشف عن عظيم تقديره وحرصه على هداية الطفل دون النظر إلى سنه أو مكانته ؛ فقولته (اللهم اهده) استخدم لفظ (اللهم) في الدعاء وهذا اللفظ له خصوصية في الحديث النبوي، فالنداء بها نداء تفخيم، وتعظيم، "وأصل الأسلوب يا الله ! حذف أداة النداء، وعوض عنها الميم في آخر لفظ الجلالة"، وقيل زيدت الميم للتعظيم، والتفخيم كزيادتها في (زرقم) قال ابن فارس الزرقم: أجمع أهل اللغة أن أصله من الزرق؛ فإن الميم فيه زائدة^(١)، والميم حرف شفهي يجمع الناطق به شفتيه، فوضعت العرب علماء على الجمع فقالوا للواحد: أنت، فإذا جاوزه للجمع قالوا: أنتم، كذلك في المتصل يقولون: ضربت، وضربتم، وإياك، وإياكم، ونظائره به، وبهم، وتأمل الألفاظ المعقود فيها الميم كيف تجد الجمع معقوداً بها مثل: ألم الشيء يلمه إذ جمعه، ومنه ألم الله شعته. وإذا علم هذا من شأن الميم؛ فهم أحقوها في آخر هذا الاسم الذي يسأل الله - سبحانه - به في كل حاجة، وكل حال إيذاناً بجميع أسمائه، وصفاته، فالسائل إذا قال: اللهم إني أسألك، كأنه قال: أدعوا الله الذي له

(١) مقاييس اللغة لابن فارس / ج ٣ / ص ٥٣ / ت عبد السلام هارون / مكتبة الخانجي ١٤٠٣هـ - ١٩٨١م.

الأسماء الحسنى، والصفات العليا، بأسمائه، وصفاته، فأتى بالميم المؤذنة بالجمع في آخر هذا الاسم إيداناً بسؤاله - تعالى - بأسمائه كلها، والداعي مندوب إلى أن يسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته كما في الاسم الأعظم.^(١)

وهذه الصيغة بتركيبها من أقرب صيغ الدعاء للإجابة، وأجدرها بالقبول لما اشتملت عليه من تفخيم، وتعظيم للمنادى يقابله شعور بالذلة، والانكسار من المنادي يرى فيها نفسه على حقيقتها حتى تتلاشي في هذه اللحظات حتى أنه لا يكاد يراها، وهذه الحالة من الدعاء لا يخطئها القبول خاصة إذا دعا بها رسول كريم على علم يقيني بعظمة الله، وهو أشد خوفاً من سلطانه، وأكثر تفانياً في الدعاء، والطاعة. لذا فإن استخدم الرسول لهذه الصيغة يوحى بحرصه وعنايته واهتمامه بهذا الطفل، ويعلمنا شدة الحرص على تنشئة الأطفال في بيئة تصح عقيدتهم، وتحمي دينهم.

ومما يدعم الثقة لدى الصغار ويبنى شخصيتهم السلام عليهم وتكليفهم ببعض المهام التي تشعرهم بالمسؤولية وأنه موضع ثقة الكبار وتقديرهم فقد ورد عن أنس أنه قال (انْتَهَى إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَنَا غُلَامٌ فِي الْغُلَمَانِ فَسَلَّمَ عَلَيْنَا ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَأَرْسَلَنِي بِرِسَالَةٍ وَقَعَدَ فِي ظِلِّ جِدَارٍ - أَوْ قَالَ إِلَى جِدَارٍ - حَتَّى رَجَعْتُ إِلَيْهِ).^(٢)

(١) ينظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم / ج ١ / ص ٥٧٦ / طبعة أولى / ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م / ط. دار الوسيلة جدة السعودية.

(٢) سنن أبي داود (أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني) ج: ٤ ص: ٥١٨ - الحديث (٥٢٠٥) الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت.

المبحث السادس

الدعاء لهم والعمل على ما يصلح آخرتهم ودنياهم.

من الحركات التعبيرية المؤثرة التي رافقت حوار الرسول - صلى الله عليه وسلم للأطفال ما ورد عن ابن عباس، قال: ضَمَنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ عَلِّمَهُ الْحِكْمَةَ. (١)

من خطاب الوجدان لدى الأطفال شعورهم بمحبة والديهم وحرصهم عليهم والدعاء لهم على مسمع منهم يعمق هذا الشعور ويدعم التواصل الوجداني بينهم وبين آبائهم وهم في أمس الحاجة إلى دعمهم بدعائهم. فلن يستطيع أحد أن يُنشئ جيلاً صالحاً، أو يربي نشأً بطريقة تضمن لهم سعادة الدنيا والاخرة بما يمتلك من أموال ووسائل حديثة فقط.

بل لا بد من الاستعانة بمقلب القلوب، فالأمر في النهاية خاضع لإرادة الله الذي إن شاء أدت الأسباب إلى نتائجها وإن لم يشأ لم يكن لها فائدة، إذن لا بد بعد الأخذ بالأسباب أن نتوجه لله تبارك وتعالى بالدعاء والرجاء والتذلل أن يأخذ بقلوب هؤلاء الأطفال إليه، وأن يدلهم عليه، وأن يقيهم شر الفتن ما ظهر منها وما بطن تلك الفتن التي قد تدركهم في وجودنا أو في غيابنا فلن ينجيهم منها إلا الله ببقية من دعاء والديهم تكون بمثابة الوقاية منها أو العلاج لما أصابهم منها. والمتأمل لأساليب النبي - صلى الله عليه وسلم - يجد أنها نبهت إلى ضرورة الدعاء لهم واللجوء إلى الله لصلاحهم وحفظهم.

عَنْ أَنَسٍ - رضي الله عنه - : كَانَ عَلَامًا يَهُودِيًّا يَخْدُمُ النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسلم - فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: (أَسْلِمَ) فَنظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ؟ فَقَالَ: أَطْعَ أَبَا الْقَاسِمِ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - وَهُوَ يَقُولُ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ) (٢).

(١) الجامع الصحيح (محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ) ج: ٢ ص: ١١٨ الحديث (١٣٥٦) حسب ترقيم فتح الباري.

(٢) الجامع الصحيح (محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ) ج: ٥ ص: ٣٤ الحديث (٣٧٥٦) حسب ترقيم فتح الباري.

المنهج النبوي مثالي في بناء علاقات المودة والإخاء بين الناس فالرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو من هو في المنزلة والفضل يذهب لزيارة غلام مريض كان يخدمه وهذا الغلام يهودي.

هذا الخلق العالي أساس من أسس الدعوة إلى الله ولنتأمل طريقته العالية وبلاغته في خطاب الطفل اليهودي الذي ذهب يعوده:

- بدأ المشهد كما ورد في الحديث بجلوس الرسول - صلى الله عليه وسلم - بجلوسه جلسة تتميز بالمحبة والود والألفة (فقد عند رأسه) وهذا القرب له أثر كبير في تطيب خاطر الطفل المريض وبث شعور الرضا والامتنان والسرور في نفسه وهو ما يخفف شيئاً من معاناته، ولا ننسى تعبير الراوي الذي ربط فيه بين مرض الغلام وزيارة الرسول - صلى الله عليه وسلم- بالفاء المنبئة بسرعة تجاوبه مع المريض بسرعة عوده.

- أسلوب الأمر المباشر (أسلم) حيث أن الموقف يقتضي الفور والمباشرة ولعله - صلى الله عليه وسلم - استشعر دنو أجله ؛ فبادره بهذا الأمر حتى يموت على الإسلام.

- ونظرة الطفل إلى أبيه بعد سماعه أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم- بمثابة الاستندان، وتدل على فهمه لمعاد الرسول منه وخطر النقلة التي هو بصدها.

- جملة الختام في الحديث الصادرة من الرسول - صلى الله عليه وسلم -: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ) جملة خبرية غرضها الدعاء ولها دلالات متعددة منها: أن الأمر تم والغلام نجا من الكفر وعاقبته بدخوله الإسلام ووفاته مسلماً على التوحيد.

- ومنها: أنها كشفت عن أهمية المسألة عند النبي - صلى الله عليه وسلم - عليه وسلم - فليست المسألة مسألة كبير وصغير أو عظيم وحقير، وإنما مسألة نفس إنسانية تنجو بالإسلام أو تهلك بالكفر.

- ومنها: أنها كشفت أدب النبي - صلى الله عليه وسلم - العالي في رد الفضل لله فيما أفضى إليه سعيه من إسلام الطفل.

- ومنها: عناية النبي - صلى الله عليه وسلم - بالصغار والتي لا تقل عن عنايته بالكبار فيما يتعلق بأمور الدين والعقيدة.

- ومنها أنها بشارة لأهل الغلام تخفف عنهم ألم فراقه حيث علموا أنه من أهل الجنة، وهم وإن كانوا يهودًا لكنهم يعلمون في قرارة انفسهم صدق النبي - صلى الله عليه وسلم - ولذلك امر الأب اليهودي ابنه بطاعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وإنما يكابرون ويجحدون، وقد غلبته عاطفة الأبوة فلم يرض لطفله في هذا الموقف الذي كان وجود فيها بنفسه. وقد مر في حديث أم خالد رضي الله عنها قالت... فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أبلي وأخلي، ثم أبلي وأخلي))، فعمرت أم خالد بعد ذلك. رواه البخاري.

فجملته (أبلي وأخلي، ثم أبلي وأخلي) وهي جملة دعائية بطول العمر وقد كررها - صلى الله عليه وسلم - إكراما لها وتلطفا بها.

قال ابن بطلال وقوله: (أبلي وأخلي) هو كلام معروف عند العرب معناه الدعاء بطول البقاء، قال صاحب الأفعال: يقال: أبلى وأخلقه: أي عس فخرق ثيابك وارقعها. وخلقته الثوب: أي أخرجت باليه ولفقته. (١)

(١) شرح صحيح البخاري - لابن بطلال (أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطلال البكري القرطبي) ج - ٥ - ص: ٢٣٢.

الخاتمة

الحمد لله وكفى وصلاة وسلاماً على عباده الذين اصطفى وبعد.
فقد دارت هذه الدراسة في دوحة البيان النبوي حيث أعلى بلاغة بشرية
وأكمل منهج رباني يمكن للإنسان أن ينهل منه ويتعلم في جميع مراحل حياته،
وما قصدته هذه الدراسة من هذا الفيض الزاخر من الفيض النبوي توجه لخطابه
للطفل رغبة في طريقته المميزة التي تبع من علم بطباع النفوس وأصل الفطر
فهو بسبيل وحي الذي خلق وقدر؛ فكل ما شرعه موافق للظفرة مناسب لطبيعة
الإنسانية.

وقد تتبعت الدراسة أنماطاً من أساليب الرسول - صلى الله عليه وسلم - في
خطاب الأطفال في سياقات مختلفة تلمساً لوجوه البلاغة العالية، وأسرارها.
وقد تبين من خلال الدراسة أمور منها:

- أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان يراعي في خطابه
للأطفال الجوانب النفسية والوجدانية لهم فقد كان يمهّد نفوسهم للمعاني
قبل الحوار وفي أثنائه، وبعده بما يجعل المعاني تعلق بوجدانهم وتشكل
فكرهم وتؤثر في سلوكهم.

- أولى النبي - صلى الله عليه وسلم - عناية خاصة لبناء العقيدة
وغرس الوازع الديني في نفوس الصغار بما يمنعهم من التردّي في
الأخطاء والوقوع في الذنوب.

- بنى الرسول - صلى الله عليه وسلم - تركيبه للعبارة بما يناسب
مع فهم الطفل الذي يخاطبه ويناسب عمره وقدراته الخاصة فجاءت
جمله في حوار الصغار قصيرة موجزة مركزة ذات كلمات معدودة يسهل
حفظها، ومعانيها يسهل فهمها واستيعابها.

- خلت الكلمات في حوارهم مع الصغار من كل لفظ غريب أو ثقيل
أو غامض، وهو ما يتسق مع ذهن الطفل ولا يجهد في الحفظ ولا في
الاستيعاب.

- احترم الرسول - صلى الله عليه وسلم - عقلية الصغار وراعى
الفروق الفردية فيما بينهم فكما راعى بساطة الفهم وابتعد عن المعاني
العميقة التي قد تنغلق على بعضهم فقد استخدم أساليب تتسم بغزارة

المعاني بحسب سعة أفق وفهم المتلقي ؛ ففي حوارهِ مع الطفل عبد الله بن عباس - رضي الله عنه - نجد تركيباً عميقاً كقوله: (رفعت الأقدام، وجفت الصحف) وهي كناية عن سبق قدر الله وعلمه لكل ما هو كائن إلى يوم القيامة، وهو تعبير فيه عمق لكنه في تمام المناسبة لفطنة الطفل عبد الله بن عباس وعقله وفيه تقدير لمكته وعقله.

بينما اقتصر على الأسلوب المباشر الصريح في حوارهِ مع الطفل اليهودي الذي عادهُ في مرض موته - واليهود أقل فصاحة من العرب - فوجههُ بأسلوب الأمر المباشر عندما أمرهُ بالإسلام بقوله: (أسلم) كما مر في الحديث.

- كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يعالج المواقف النفسية التي يتعرض لها الأطفال في المواقف المختلفة حتى لا تترك آثاراً سلبية تؤثر على بناء شخصيتهم وتبتعد بها عن السلوك القويم، وقد رأينا ذلك في حوارهِ مع الطفل الذي كان يرمي النخل، وقد شكاه أصحاب النخل واتي به إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - لئسئل عما فعل، وبعد نهاية الحوار وردّ الحقوق لأصحابها مسح النبي - صلى الله عليه وسلم - على رأس الطفل ودعا له، ولا شك أن هذه الحركة الحنونة تعيد للطفل سكونه وطمأنينته وترد ما وقع في نفسه من هذا الموقف الذي مثّل فيه متهماً بين يدي النبي - صلى الله عليه وسلم - كما تربّت على نفوس أهله وتشعرهم بالرضا لاسيما بعد دعاء النبي لطفلهم.

- كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يبادر بتقويم خطأ الأطفال حال وقوعه ويرشد إلى الصواب ويقدم البديل الأمثل كما مر بنا في حديث ابن عباس وقد كانت يده تطيش في الصفحة: (يا غلام سم الله وكل بيمينك، وكل مما يليك).

- كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يستثمر المواقف المختلفة للتقويم والتعليم والتربية ولا يقتصر على تصويب الخطأ بل يضيف مجموعة من الآداب التي تكمل النقص وتسد الخلل وتحقق كمال الأدب. كما مر في الحديث السابق.

فهرس المراجع

- الأحاديث المختارة للضياء المقدسي (الحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن أحمد الحنبلي المقدسي) ت: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش - الطبعة: الأولى - دار النشر: مكتبة النهضة الحديثة - مدينة النشر: مكة المكرمة - سنة النشر: ١٤١٠هـ.
- تهذيب اللغة: (أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري) - ت: محمد عوض مرعب - دار إحياء التراث العربي - بيروت - الطبعة: الأولى ٢٠٠١م.
- الجامع الصحيح (محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ) حسب ترقيم فتح الباري - الطبعة: الأولى، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م - الناشر: دار الشعب - القاهرة.
- الدعاء للطبراني (سليمان بن أحمد الطبراني أبو القاسم) المحقق: مصطفى عبد القادر عطا- الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ.
- سنن ابن ماجة (ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني) (المتوفى: ٢٧٣هـ) كتب حواشيه: محمود خليل - الناشر: مكتبة أبي المعاطي.
- سنن أبي داود (أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني) الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت.
- شرح صحيح البخاري - لابن بطل (أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطل البكري القرطبي) تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم - الطبعة: الثانية - دار النشر: مكتبة الرشد - السعودية / الرياض - ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
- صحيح مسلم (مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي - الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- علم الأسلوب - مبادئه وإجراءاته / د. صلاح فضل / ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب / ١٩٨٥م.

- فتح الباري شرح صحيح البخاري (أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي) الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.
- اللباب في علل البناء والإعراب - أبو البقاء محب الدين عبد الله بن الحسين بن عبد الله - تحقيق: غازي مختار طليمات - الناشر: دار الفكر - دمشق / الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.
- المزهري في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي: (جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي) - تحقيق: فؤاد علي منصور - الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
- مقاييس اللغة لابن فارس / ت عبد السلام هارون / مكتبة الخانجي ١٤٠٣هـ - ١٩٨١م.
- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي) - الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ - الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم / طبعة أولى / ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م / ط. دار الوسيلة جدة السعودية.